بعض أحداث الدولة العباسية
والدور العباسي الأول
من خلال منظور عنصري واقتصادي واجتماعي

د . نبيه عاقل

عميد كلية الآداب ـ جامعة دمشق

النقاش الذي أثاره بعض الباحثين المحدثين حول هوية الثورة العباسية ومدى عروبتها أو عجمتها ، انتهى لصالح الفريق القائل بأصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على أنها قامت على أكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . واذا ما أضفنا الى هذا عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس بن أبي طالب عم الرسول (ص) ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، واهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب أقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم . حتى أن بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر أن الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها ببعض لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعه ، وقد نجح في ذلك . أما كتلة الموالي ، فلم تكن ذات هوية عرقية معينة ، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفاً مثل الجاحظ يميز بين « الموالي » و « العجم » من جهة ، وبين « العرب » و « العجم » من جهة أخرى . فولاء « الموالي » كان خالصاً للدولة ، لا لجنس معين ، وهذا يعني ، كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « بأن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجياً من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة ، الاسلام » . [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ط ، ١ ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٨١] .

ومعلوم أن الثورة العباسية التي أسقطت حكم بني أمية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيباً من جميع أفراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان أخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكاً عضوضاً كسروياً . [انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب « النبذة » الذي يعتبر بأن الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها وأسندت القضايا والاحكام الى خيارها » ، وقارنه برأي ابن الطقطقي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » ، او ابن عذاري وابن حزم اللذين ينعيان سقوط دولة بني أمية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩] . واذا أضفنا الى ذلك أن الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع أبو بكر الصديق أن يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لا يتزعزع بوجوب استمرار الدولة العربية المسلمة الموحدة الاولى التي أقام الرسول صلوات الله عليه دعائمها في المدينة ، وأن هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت أن تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت ان تنشر السيادة العربية وأن توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد أن أكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف أصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة أممية تزادد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء « أمهات ولد » .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بأنه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية » . ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر أنه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها » . [انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين

ج ٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج ٧ ص ٢٩١ – ٢٩٢] . ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء أفراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربع مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قاموا بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة . ورغم أنه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا أنه لا بد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . وبتض هذا الذي نزعم بصورة أكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة أخرى فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول (ص) الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف الوثيق بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي ، وما لبثت أن بدأت حركات مريبة كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني وسواها تطل برأسها لتعمل في الجسد العربي نخراً وتخريباً . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا أنها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثاراً عميقة كان أقلها انفصال أقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم اسمياً باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيراً ما كانت تحجبها عنه ، وقد وضح هذا الصراع أكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية ، والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحاً لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبأت من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة

مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على أن هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لأن انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر أغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من احقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف أن السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الأخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي اقوى وأعمق أثراً من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس اتيح له أن يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

ولسنا نريد ان ننهي هذه المقدمة لبحثنا دون أن نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكن شراً كله ، اذ أنه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطاً طويلاً تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان اول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية فقد استطاعت العربية أن تصمد وأن تحفظ وجهاً عربياً للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الا نسرف في شرح أبعاد وآثار هذه الظاهرة ، ولكن لا بد من التنويه بأن كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهماً في هذه المرحلة من بحثنا أن نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس التي بدأت حياتها وهي تلوح عالياً بهويتها العربية ، معتزة بها ، وبالدم العربي الذي أوصلها الى سحق حكم بني أمية والتربع على كرسي السلطان بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية

السوداء ، وما أخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد أمد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟! وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الراي القديم الذي يقول بعجمة الثورة ، وانصار الرأي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع أصحاب الرأي القائل بعجمة الثورة أن يستغلوا الأخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الأول كدليل على صحة نظريتهم ، وفساد رأي القائلين بأن العرب عموماً ، وعرب المشرق خصوصاً ، هم الذين أوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لابد لنا من أن نتذكر الامور التالية :

أولاً :

ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي أن نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب أخبار الدولة العباسية [مؤلف مجهول ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، ط . بيروت ۱۹۷۱ ، ص ۲۱٦ وما بعدها] بأسماء النقباء ونظراء النقباء والدعاة حتى يتبين لنا أن القائمين على الثورة كانوا عرباً وغير عرب ، وأن الذي كان يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني أمية وايصال بني العباس الى الحكم ، وأن الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وأنه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة .

ثانياً :

كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو أن هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الأول من أمثال سالم بن بجير (سالم الأعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي :

« ولما اجمع محمد بن علي على توجيه أبي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبد بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد أحببت ان استأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما أحب ان تخالفوا بكيراً فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في أمرنا هذا فرأيناك قد حللت بين أهل الشام ، ورأينا لأهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في

اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيــه . قال محمد : أصاب بكير ، واخطأتم أبى الله أن يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب أن يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين ، وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، وأغرى أكثر اهل العراق بمشايعة بني ابي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا وأعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك أن تتبعهم ريح الحياة **فتعز ذليلهم ، وتقوي ضعيفهم ،** وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق وأهله ، بقول الله عزوجل : (أنزل من السماء ماء فسالتْ أودية بقَدَرِها)، فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبر الحديد ، **أسماؤهم الكنى ، وأنسابهم القرى ،** يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، فالهْ عن غير أهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير أهلها مجيب » . [المصدر السابق ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦] .

ويتضح من هذا الحوار أن سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد ابن علي وموضع ثقته ، استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من أن بكيراً كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت . [انظر اخبار الدولة العباسية ، ص ١٩١] . ومع أن سالماً لا يطلب من محمد بن علي أن يثق بجميع أهل الشام وأن يطلعهم على أسرار الدعوة ، وأن يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمداً يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد أن الله قد خصهم (أي بني العباس) بأهل خراسان ، وأن رحمة الله **ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ،** وكأن في ذلك اشارة الى فئة خاصة من أهل خراسان هي فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما أنه لايمكن أن يفهم من وصف محمد بن علي للرجــال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « أسماءهم الكنى » بأنهم كانوا من العرب فقط، لأن زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى بـ « أبي هاشم » ، وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بأبي اسحق ، وأبو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . أما قوله بأن « أنسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا أن هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركــة السياسية الجديدة كان نتيجــة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعلا الشعور العصبي يتضاءل أمام الامال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي

المنشود . كما انه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من أخلاط الامم الذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي أدى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري من عروقهم .

ثالثا :

ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بأنه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني أمية أن ينكر أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك . كما أنه لا بد أن نلاحظ أن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني أمية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب أيضاً . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة أو تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني أمية ، لوجدنا أن النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك والتي ضمت العديد من رعايا الدولة عرباً وغير عرب كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضاً في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجدداً ، لا سيما وأن عوامل جديدة أخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم ، فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجدداً للغرض نفسه . [من أجل تفاصيل أوفى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ – ٣٨٦] . فقد تبين لهؤلاء أن ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي أبي مسلم وجماعته . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢] .

على أن هذا الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونما مبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار أمرها أن يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي أوصلتها للحكم ، وأوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قوياً أمدها بالدماء

والمهج حتى حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من ان نذكر أن القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس أدل على هذا من قول محمد بن علي في وصف أهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « ومـا يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون » [أخبار العباس وولده ، ص٢٠٧] فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحـال والذين انضموا للثورة بامل الخلاص ، لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على أقدامها ، حتى وضح لهم أنها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا أنهم سيتظللون أفياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس. ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد أن ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيباً لاتجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يـد التخريب في جسد الدولة ووحدتها الساسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهراً واضحاً من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خـلال فترات القوة أيام معاويـة وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد أدت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع أهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة أو حركة اعتقدوا ان فيها تنفيساً عن كربهم أو أمـلا بنجاتهم . وقد وصل الأمر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احيـاء ماكان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفاً دينياً أو قومياً فحسب ، كما يحلو للبعض أن يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضاً تعبيراً عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة في نفوس هؤلاء المرتدين، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي أطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الأمويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه ، تفحص واع لبعض أخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ أيامها الأولى ، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن أبي جعفر المنصور ، والتي تقدم مثلا واضحـا على ما أصاب المحرومين من خيبة أمل في الحكم الجديد جعلهم يحملون "السلاح في وجهه . والقضية كما يلخصها لنا الطبري [ج ٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] أن جند عبد الله بن الربيع الذي ولي المدينة لأبي جعفر المنصور سنة خمس وأربعين ومائة أساؤوا معاملة بعض السود الذين كانوا يسكنون المدينة من أصحاب الحرف والصناعات واعتدوا عليهم اعتداءات فردية أدت الى ردود فعل فردية أيضاً أول الامر . ولما تمادى الجند العباسي في غيهم ، ولم تلق شكاوى السود

من الوالي أذناً صاغية « نفخ السودان في بوق لهم » ، أي أعطى رئيسهم اشارة البدء ، فتوجهوا اليه من جميع انحاء المدينة ، وقاتلوا الوالي في عدة مواضع منها ، وهزموه وهزموا جنده ، وانتهبوا كل ما كان في المدينة من مؤن وعتاد مخصص للجيش ، حتى لقبهم أهل المدينة ب « السحرة والشياطين » لشدة بأسهم . وفي ثنايا الخبر الذي يورده الطبري نجد اشارات عديدة الى أعمال كان يرتكبها ممثلو السلطة العباسية ضد الفئات المستضعفة في المدينة ، كدخولهم المتاجر وأخذ الاشياء دون دفع ثمنها ، أو سرقة أموال الناس ، أو قتل بعض المساكين الذين كانوا يستجدون الناس قرب باب المسجد وما شابه ذلك . [انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٦٠] . ونجد في الحل الذي اقترحه وثيق ، زعيم السود ، للازمة التي عصفت بمدينة رسول الله بعد هذه الثورة ، صورة لنوعية الحكم الذي كانت تصبو اليه عامة الناس ولم يتحقق لهم . فقد قال وثيق لمحمد بن عمران ، وهو من وجوه أهل المدينة أنذاك ، حين جاءه يسأله عما يريد بعد أن تم الأمر له وهزم الوالي العباسي وأصبح ورجاله أصحاب الامر في المدينة : « فدخل عليه ابن عمران ، قال : الى من تعهد يا وثيق ؟! قال : الى أربعة من بني هاشم ، وأربعة من قريش ، وأربعة من الانصار ، وأربعة من الموالي ، ثم الامر شورى بينهم . » . [المصدر السابق ، ص ٦١٢] . وفي هذا الرد ما يوضح خيبة الامل التي أصيبت بها العناصر المستضعفة من الحكم الجديد ، وعدم رغبتها في أن يكون الامر لها ، كما أن فيه ما يؤكد بأنها تقر لاهل الفضل بفضلهم ، ولا تحيد عن مبدأ الشورى الذي طرحه الاسلام أساساً للحكم .

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بأنها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل أحداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب أعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل أبي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل أبي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر أنه كان مجوسياً ومن أتباع أبي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري،تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لانجد في مصادرنا اجابات عليها ، ومن ذلك مثلاً :

١ ـ النص في المصادر على مجوسية سنباذ ، وتبعيته في نفس الوقت لأبي مسلم [يقول الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٩٥ : « وذلك أنه كان من صنائعه . »]، وأبو مسلم داعية آل البيت ورافع رايتهم ؟!

٢ ــ سرعة استجابة الناس له وتكاثرهم حوله وسيطرته على رقعة واسعة من الارض رغم أن الفترة بين مخرجه ومقتله لاتزيد على السبعين يوما فقط حتى بلغ من قتل من رجاله نحوا من ستين ألفا .

٣ ــ كانت خزائن وأموال أبي مسلم المحور الرئيسي في الحركة . فقد كان الهم الاول لسنباذ الاستيلاء عليها ، ولما قتل على يد القائد العربي جَهْوَر بن مرّار العِجْلي الذي أرسله المنصور لاخماد الحركة ، كان هم هذا القائد كنوز أبي مسلم أيضاً ، اذ استولى عليها لنفسه وامتنع عن ارسالها الى الخليفة وانضم اليه في عصيانه « نُخَب فرسان العجم » [المصدر السابق ، ص ٤٩٧] . وهكذا استوى العرب والعجم في حرصهم على نهب المال وفي الثورة على السلطة العباسية .

٤ ــ أخذ سنباذ معه حين خرج عدة من النساء المسلمات الحرائر كان قد سباهن وأركبهن الجمال ، ووضعهن أمام عسكره حين هاجمه الجيش العباسي . [أنظر ، ابن الطقطقي ــ الفخري في الاداب السلطانية ، ط . مكتبة محمد علي صبيح ، ص ١٣٨] . ولست أجد تفسيرا لهذه الفعلة سوى أنه اراد ان يبالغ في اهانة الحرائر المسلمات انتقاما للاماء من بنات جنسه اللواتي كن يسبين من قبل العرب ، وفي هذا رفض اجتماعي وعرقي للسيادة العربية .

وتتوضح هذه الصورة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة أخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور . فالراوندية الذين خرجوا زمن أبي جعفر المنصور ، كانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل أبي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا أن روح آدم حلت في عثمان بن نَهِيك ، (وهو أحد القادة الذين كان يعتمدهم أبو مسلم أثناء عمله في خراسان لانجاح الدعوة ، وكان رئيس حرس المنصور ، وهونفسه الذيأوكل اليه المنصور بعدذلك قتل أبي مسلم . وشارك بسيفه مع أربعة آخرين من رجال الحرس في قتل أبي مسلم) ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو ابو جعفر المنصور (قاتل ابي مسلم) ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل ، (الهيثم هذا هو أحد خلّص المنصور ، وكان واليه على مكة والطائف) . وقبل أن نستمر في سرد أحداث هذه الحركة نستطيع أن نلمس الشر الذي كانت تخفيه من الوقوف عند هذا الحد المعلن من مبادئها : فأبو جعفر المنصور ، قاتل أبي مسلم : هو ربهمالذي يطعمهم ويسقيهم وعثمان بن نهيك ، أداة تنفيذ القتل ، حلت فيه روح آدم ، والهيثم بن معاوية

ثقة أبي جعفر وواليه على مكة والطائف ، هو جبريل . كل هذا ، والسبب الذي أعلنوه لخروجهم هو الثأر لمقتل أبي مسلم . وفي هذه الوقائع ما يكفي لان يكون المؤشر الواضح لما كان يكتنف هذه الحركة من ريبة وشك لايدافع عنهما .

واذا انتقلنا الى أحداث الحركة والذعر الذي أصاب أبا جعفر بعد قيامها وتوليه بنفسه ماشياً ، دونما دابة يركبها ، أمر ملاحقة أصحابها وقتلهم ، ثم استعانته بألد أعدائه ، معن بن زائدة الشيباني ، الذي كان مختفياً لما كان من قتاله المسودة مع ابن هبيرة ، وهو اليوم لا يجد من يلجأ اليه لقتال هذه الفئة المرتدة سواه ، ويعلل لجوءه اليه قائلا ان معن بن زائدة **« رجل من العرب ،** شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٠٧] .

وعثمان بن نهيك الذي « حلت فيه روح آدم » ، على حد زعم الراوندية ، كان أول ضحاياهم ، ولولا وقفة معن بن زائدة منافحاً عن أبي جعفر المنصور ، لما سلم من غدرهم ، وقد أكرم المنصور معناً أيما اكرام ، وأفسح له مكاناً الى جانبه على مائدة العشاء ، بعد اخماد الحركة ، وقال لجلسائه على تلك المائدة يصف معناً : « انه من أشد الرجال ، وانه من تلك الآساد » وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وولاه اليمن .

من هذا كله ، تتضح أمور عدة ، لعل أهمها :

١ ـ الخلاف في الهوية العرقية بين الراوندية ومن والاهم ، وأبي جعفر المنصور ومن وقف يدافع عنه ، فقد كانت ثورة الراوندية ثورة عجم آلمهم وأمضهم مقتل رجلهم الاول أبي مسلم الخراساني ، وكان الذين وقفوا الى جانب أبي جعفر، سادة عرب، ذابت الخلافات السياسية بينهم (معن والمنصور مثلاً) وتوحدوا في جبهة عربية موحدة .

٢ ـ حاول القائمون على الحركة الانسلال الى أهم ركيزة من ركائز الدولة، وهو دينها ، وتزييف بعض الشعارات الاسلامية ، كالقول بتناسخ الارواح ، وربوبية أبي جعفر ، وتقمص جبريل في الهيثم بن معاوية وسواها . ويبدو أن المنصور لم يكن في أول الأمر على بينة من أهداف الحركة ومراميها ، حتى أنه حين أبلغه أحد خاصته بأنهم يقولون بأن المنصور هو رب العزة ، وهو الذي يطعمهم ويسقيهم ، أجاب الرجل قائلاً : « يا هذلي ، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويعتلهم ، أحب الي من أن يدخلهم الجنة في معصيتنا » [الطبري ، ج ٧ ،

ص ٥٠٧] . على أن هذا الموقف من جانب أبي جعفر سرعان ما تبدل ، ولا سيما حين أدرك أن ما يقولون بألسنتهم ما هو الا تزييف قبيح لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم ، فحاولوا أن يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة ما لبثت أن انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على أن حركة الراوندية تظل رمزاً بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ــ هويتها الخراسانية .

٢ ــ حقدها الدفين على العرب .

٣ ــ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لا بد لنا أن نلاحظ ، أن خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن أبي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس اليهم . [انظر،الطبري ج٧ ، ص٥١٩]. وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصاً للاسلام .

واذا استعرضنا أهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها فيما كان يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، لوجدنا أنه لم يكن يمر يوم دونما انتفاضة في اقليم من الاقاليم أو مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي ، وحتى القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع ، كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة . وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفاً دائماً ، وما تكاد تسد خرقاً حتى تواجه بخرق أدهى وامر . اذا أضفنا الى كل ذلك ، أن الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد أسلموا بعد ، أو ان الكثير ممن اسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفاً أو مشوهاً لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا أن الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة ، السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك

الاصقاع، كما أن أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لا ينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان أهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي أعلنتها ثورة بني العباس على أسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية وفي الاطار العام لسياسة الدولة . ولنبدأ بقضية العداء بين بني العباس وبني هاشم ، وما كان من موقف أبي جعفر المنصور من محمد (النفس الزكية) وابراهيم ، ابني عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، مروراً بثورة الحسين بن علي بن الحسن ، وثورة ادريس بن عبد الله وأخيه يحي ونهاية موسى الكاظم على يد الرشيد ، حتى نصل الى مقتل محمد بن القاسم العلوي الذي كان يدعو الى الرضا من آل محمد والذي بدأ دعوته في الكوفة ثم انتقل الى الطالقان ، وكانت بينه وبين جيش المعتصم معارك دامت حتى سنة ٢٢٠هـ ، وانتهت بموته مسموماً على أغلب الظن ، وظل أتباعه في الكوفة وطبرستان والديلم وخراسان يقولون بأنه حي ولم يمت وانه المهدي الذي لن يلبث أن يخرج ليملأ الارض عدلاً بعد ما عمها الجور والفساد ، وظلت ذيول حركته قائمة حتى سنة ٣٣٤ هـ . هذه الحركات وما تمثله من طعنة في صميم ما أعلن من اهداف الدعوة العباسية (الدعوة الى الرضا من آل محمد) كانت دونما شك عامل هدم خطير في جسد الدولة من جهة ، وملجأ لكل ثائر على سياسة البيت العباسي من عرب ، وعجم على الخصوص ، من جهة أخرى . فاذا كانت الدعوة التي أعلنت باسم الرضا من آل محمد ، قد انتهت بخيانة هذا المبدأ الاول وملاحقة فئة كريمة من هؤلاء الآل تحظى بتأييد العديد ممن ساندوا الدعوة وبذلوا دماءهم في سبيلها ، فانه من الطبيعي أن يجد أعداؤها ممن يؤيد آل هاشم ، متنفساً في كل تحرك يقوم ضدها ، فيسرعوا الى مساندته ومده بالدعم المادي والمعنوي ، لا سيما وان اجماع كتاب التاريخ والفرق ينعقد على أن أصل الحركة العباسية يرجع الى الكيسانية والهاشمية ، من أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي وأبي هاشم الذي عهد الى ولد عبد الله بن عباس ، أولاد عمومته ، بالامر من بعده ، بعد حادث السم المزعوم ولجوئه الى الحميمة . وحتى نقطع الطريق على ما تفرق حوله الرأي من أسباب عهد أبي هاشم الى محمد بن علي العباسي وجعله اياه اماماً

للحركة السرية الهاشمية ، فاننا نقول بأن في هذا العهد ما يؤكد صدق القائمين الاوائل على هذه الدعوة في تحركهم ضد بني أمية وشعورهم بوحدة آل البيت ، فان أبا هاشم صاحب الدعوة رغم انتسابه الى الفرع الهاشمي لم يجد حرجاً في أن يعهد بالامر حين شعر بدنو أجله الى أبناء عمومته من آل العباس ، وبشكل خاص الى محمد العباسي ، لانه أخذ العلم عن أبي هاشم نفسه . ورغم وجود أقرباء لابي هاشم من العلويين ، ولكن تفرق رأيهم وما كان بينهم من تنافس على زعامة الشيعة العلوية وخصومة على ولاية ارث علي وفاطمة ، كانت كلها أسباب جعلته لا يتحرج من اسناد الزعامة الهاشمية الى شخصية غير علوية ، وهو محمد العباسي ، الذي حول المنظمة الهاشمية الى منظمة عباسية . وما لبث أعقابه ، ومن آل اليهم الامر من بعده من أفراد أسرته أن جعلوا همهم الاول القضاء على ابناء عمومتهم من آل علي ، أصحاب الدعوة الاول ، وشركاؤهم في النسبة الى آل البيت .

وسار العباسيون بعد أن غدوا أصحاب السلطان شوطاً أبعد في التنكر لشعارات ثورتهم ، اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي وأن حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا مالا يقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم أحياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم . كما أن ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة لهم تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة ، وثورتهم على « أهل الجور » أي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة أخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو أن العباس عم الرسول (ص) وأنه وريثه بعد أن انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد أبي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور . ففي خطبة للسفاح يذكرها الطبري والدينوري والمسعودي وسواهم من المؤرخين يتحدث السفاح عما خص به الله آل عباس من صفات وألزمهم من واجبات فيقول . « وألزمنا (أي بني العباس) كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله (ص) وقرابته وانشأنا من آبائه وانبتنا من شجرته » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٥] . كما يؤكد الحقيقة ذاتها داوود بن علي فيقول ، وبنفس المناسبة : « الحمد لله ، شكراً شكراً شكراً ، الذي أهلك عدونا وأصار الينا

ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٢٦] .
واستمر الموقف العباسي حيال هذا الامر فترة ليست بالطويلة ، كان الامر يطرح فيها تلميحاً حيناً ، وتصريحاً أحياناً أخرى حتى كانت خلافة المنصور الذي كشف كل قناع ، وأعلنها صريحة لا لبس فيها أن الامر لآل العباس وليس لسواهم من آل البيت ، اذ أنه في مراسلاته مع محمد النفس الزكية الذي كان أقوى المرشحين العلويين للخلافة في زمنه والذي أعلن الثورة عليه ، دخل في حوار طويل حول أحقية ارث النبي وقال في رسالة له الى النفس الزكية رداً على ادعاء هذا الاخير بأن الحق لآل علي وفاطمة : « وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الله تعالى يقول في كتابه (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ، وانها لقرابة قريبة ، **ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية »** . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يرثون » . الى أن يقول له في نفس لرسالة : « ... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (أي غير العباس) ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده ، فالسقاية سقايته وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، ولم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه » . [الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٧٠ — ٥٧١] . حتى أن بعضهم يذهب الى حد القول بأنه سمى نفسه « المنصور » بعد انتصاره على العلويين [انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٩] . كما شجع الشعراء على نظم أشعار تمجد حق آل عباس في خلافة رسول الله وامرة المؤمنين ، وروجت أحاديث نبوية لنفس الغاية . وهكذا فقد خاض العباسيون معركة سياسية وفكرية ضد العلويين خلال الدور العباسي الاول بكامله وسخروا لها رجالات الفكر والعقيدة وألفت كتب تتناول مواضيع تمس هذا الامر مساً مباشراً أو غير مباشر . ولا أريد أن أطيل حول هذا الموضوع ، ويكفي ان نعود بذاكرة القارىء الى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين كانت سلطات دمشق تراقب بعين الشك والحذر تحركات علي بن عبد الله بن العباس الذي كان يمارس نشاطاً سياسياً سرياً جعل الوليد بن عبد الملك يضطر الى سجنه وضربه بالسياط ونفيه الى الشراة ، فاتخذ الحميمة مقراً له . أقول ، يكفي أن نعود بالذاكرة لهذه الاحداث ، وسواها كثير بعد ذلك ، لنقرر أنه كان لآل العباس أطماع ومطامح سياسية ، وان الفرصة لاحت بعد عهد أبي هاشم ووصيته لمحمد العباسي .

وإذا تركنا هذا المظهر الأول من مظاهر مخالفة العباسيين للأهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر من الأمور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني : « أمرني الامام أن أنزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا ادع نصيبي من صالحي مضر ، وأحذر أكثرهم من اتباع بني أمية ، واجمع الي العجم » . [أخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥] ، وقوله : « قد أمرنا الامام باختصاص اليمن » . [المصدر السابق ، نفس الصفحة] ، هذا فضلاً عن النقاش الطويل الذي دار بين باحثين متخصصين حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه باحثون محدثون من امثال فاروق عمر وعبد الحي شعبان وسواهما الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجهاً بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب ، وفي كل مدينة فيها حامية عربية . لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولاً كسبهم الى الدعوة العباسية » . [فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨] ، و « أن سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها ، الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » . كما يقول عبد الحي شعبان . [انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦] . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصباً على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوتن وسواه ، وكان يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة ، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، وأناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الأول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية بقادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكماً لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الأسرة ، كان طبيعياً أن تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الأمر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة

ليغدو شعوراً عاماً ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت ان الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ولا يقيم للتوازن القبلي حساباً . ثم ما لبث الأمر أن غدا على خلاف ذلك ، فانحسرت الثورات القيسية لتحل محلها ثورات يمانية ، على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف أكدته جميع مصادرنا . ورغم أنه لا يدخل في نطاق هذه الدراسة التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا اقل من أن نذكر ان اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيساً ويمناً الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ والتي بررها بقوله انه لا يكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لأنهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الأعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دوراً محرضاً ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والأردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ التي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة الف رجل ، واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح انها بدأت منذ الأيام الأولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وأن اسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادىء . ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين الفاً ... وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » . [العيون والحدائق ، ج ٣ ، ط . المثنى ، بغداد ، ص ٢١١]. وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين امر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الأول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيراً عن نقمة « أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الأموية » و « لابتعاد مركز الخلافة عن دمشق » . [انظر ، أمينة بيطار ، دراسات في تاريخ العصر العباسي ، ط . دمشق ١٩٨٠/١٩٨١ ، ص ٧١ ــ ٧٢] . ولكن

تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لا تقتصر على الشام فحسب ، بل تقوم في أغلب أصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الأمير أحمد بن محمد العمري المعروف بالأحمر العين ببلاد اليمن [انظر ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضاً الطبري والبلاذري] ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحاً طويلاً من الزمن خلال حكم الواثق وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة [انظر أحداث خلافة الواثق في الطبري وابن الأثير وسواهما] ، وكانت كلها تعبيراً عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الأمين يقولها مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الأمين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه ! (أي على المأمون) ، هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه - يعني الزط - يقوى على حلبة العرب » . [الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٩٩] .

ولم تكن مصر أقل تحسساً لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الأول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان اكبرها واكثرها خطراً ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لأن يعهد بقمعها لأمهر قواده عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر . [انظر أخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها] . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الأولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الأمر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولاً رد الأمور الى نصابها ، واحتلال المكانة لتي لم تعط له منذ اليوم الأول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الأمر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائياً عن المسرح السياسي وتدال دولته ما قام للعباسيين أمر ، وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم ، العنصر التركي ، ثم سواهم من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الأيام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني

أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها، فقد شعروا، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان، وقيام أبي سلمة الخلال بالأمر لبني العباس في مرو، بأن دورهم لن يكون الا ضئيلاً وثانوياً . « فاضطرب أمر العرب بخراسان، وتعصبوا وتحزبوا واقتتلوا وهم متحيرون » كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » [ص ٢٤٨] . وهكذا، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة، وجاءت تصرفات وأفعال من وسدت اليهم الأمور من آل العباس، لتؤكد هذا الشك، فكانت الثورات العربية للأسباب التي أوضحنا، وعلى النحو الذي أسلفنا، حتى بلغ الأمر ببعضها الى اعلان الاستقلال بما تحت أيديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها . [انظر، ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج ٨، ط . حيدر أباد، ١٩٧٥، ص ٣١٢ – ٣١٣] .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة، وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها السلطة خالصة لا ينازعها فيها منازع، أن الثورة انما قامت لتقاتل « قوماً حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه، وتولوا عن أمره » [فتوح ابن أعثم الكوفي، ج ٨، ص ١٧١]، كما أنها عازمة أصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه »، وندد زعماؤها « بأهل الجور » (أي الأمويين) الذين « فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر، وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم » [فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١١٧] . ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلاً، وجاءت الأحداث في هذا الدور لتثبت أن الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، لم يكن الأمر المطبق دائماً، ولا سيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع أن نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل، وثمرة طيبة حيناً، وخبيثة حيناً آخر، من ثمار التلاقح الفكري بين الأمم المختلفة التي عاشت على أرض الدولة الاسلامية وحملت معها إرثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها، كما حملت أحقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

وطبيعي أن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا أكثر التزاماً بالقواعد والأصول من أولئك الذين تلوهم . فهذا المهدي وابنه الهادي يشهران السيف في وجه

حركة الزندقة التي أخذت تستشري منذ زمن المهدي ، ويقتلان دون رحمة من يتناهى اليهما أنه من أصحاب ماني . وكانت وصية المهدي لابنه الهادي : « يا بني ان صار الأمر لك ، فتجرد لهذه العصابة فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن . . . ثم تخرجها الى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة . . . . فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فاني رأيت جدك العباس في المنام ، قلدني سيفين وامرني بقتل أصحاب الاثنين » . [المرتضى ، ذكر المعتزلة ، ص ٣١] . وحين آل الأمر الى الرشيد منع الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام . ولكن الحال تغيرت زمن المأمون ، فأطلق القول وفسح في المناظرات وشارك بشخصه في مجادلة الفقهاء ، حتى أنه كما يقول صاحب العقد الفريد ، كان يوسع صدره للمرتدين عن الاسلام ويستعمل الحجة بعد الحجة حتى يرجع بهم اليه . [العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٥٥] . ثم ما لبث أن التزم مبدأ المعتزلة وقال بخلق القرآن ، وأبعد عن دواوين الدولة وشد بالحديد من خالف رأيه ، وأخذت المحنة الفكرية تسد على الناس سبل بقائهم ومعاشهم . وظل الحال كذلك طيلة خلافته وخلافة من تلاه حتى عهد المتوكل . ويصل التناقض أوجه حين ترى الاضطهاد والسجن وحتى الموت كان قدر كل من لا يقول بخلق القرآن مهما علت منزلته ، أما المجوس مثلاً ، فكان لهم أن يعارضوا وبوقاحة علماء المسلمين من أمثال الجاحظ الذي يحدثنا فيقول : « وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل أيضاً صاحبكم (يقصد الرسول صلوات الله عليه) انما توعد أصحابه بالنار لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق ، وانما هي ناحية الحَرور والوَهَج والسموم ، لأن ذلك المكروه أزجر لهم » . ويرد عليه الجاحظ رداً علمياً حول تنوع اقاليم بلاد العرب وأن فيها الحار والبارد الذي تتجمد مياهه بسبب شدة برودته في فصل الشتاء ، الى أن يقول له الجاحظ « . . . . وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم ابعث الا الى أهل مكة ، لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوته والذي اليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته أنه المبعوث الى الأحمر والأسود ، والى الناس كافة . . . فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يعد من باب الموازنة » . [الجاحظ ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٥]. وفي هذا النص ، وهو واحد من كثير جداً في هذا الباب ، ما يوضح الحرية التي كان يتمتع بها مجوسي يشتم الرسول الأعظم ودين الاسلام ، في حين أن الذي كان لايقول بخلق القرآن يتعرض لاقسى المحن والويلات مهما علت منزلته وسما قدره . ويبدو أن شخصاً كالجاحظ قد مر في موقفه من هذا الأمر بمرحلتين :

مرحلة أولى ظن فيها أن هذا النقاش والجدال دليل حرية فكرية ووسيله لتنشيط الفكر الناقد الخلاق ، فدعا المفكرين المسلمين الى الأخذ بهذا النهج واتباعه سبيلاً في تنبيه الاذهان اذ يقول : « وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنا وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ؟ وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » . [الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٣] . وهذه المرحلة كانت في الفترة الأولى من حكم المأمون على أغلب الظن . ولكنه ما لبث أن اكتشف سوء نوايا هؤلاء المتسترين بحرية الفكر ، فانتقل الى المرحلة الثانية التي رأى فيها أن الاغراق في هذه الحرية سيؤدي بالضرورة الى استشراء الزندقة في جمهرة المسلمين وكثرة تفرقهم وتشرذمهم واندساس أصحاب الغرض بين صفوفهم ، وأدرك أن هذه الحرية استغلت أشنع استغلال ممن يريدون القضاء على العرب والاسلام معاً وافساد الناس . وقد وصف هذا الذي حدث في المجتمع في عصره بقوله : « وقد ترك هذا الجمهور الأكبَر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس الا : لا أو نعم . الا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » . [الحيوان ، ج ٧ ، ص ٣] . ووجد أن ذلك لم يكن صدفة ، وانما أمر تعمده المتعمدون في اشاعة الزندقة ، فقال في أولئك الذين روجوا له بين صفوف العامة : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالاسناد من رواياتنا ، والمتشابه في كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ،وحتى مع ذلك ربما تبرؤوا الى علمائنا وأهل الاقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف ... » . [رسائل الجاحظ على هامش الكامل ، ج ٢ ص ١٧٤] .

وعندي أن في كلام الجاحظ هذا صورة صادقة لهذا الانحراف الفكري الذي تناول أسس العقيدة فعمل فيها تخريباً وتشويهاً بقصد خبيث ، لا أستطيع تبرئة الدولة عن مسؤوليته ، ولكني لا أجزم بتواطئها مع اصحابه او ضلوعها في الترويج له عن قصد وسوء نية . ولست أريد أن أسير شوطاً في هذا الامر ، ولكني أردته اشارة واضحة الى الصلة البينة التي يمكن أن يلاحظها المدقق في الاحداث بين الحركات الثورية الدينية التي أشرت الى بعضها في مطلع

بحثي ، كالرواندية وحركات سنباذ والمقنع الخراساني وسواهم ، وبين هـذا المناخ الفكري المتسربل بأثواب الحرية في الظاهر ، والذي يخفي أفاعي حادة الانياب تنتظر اللحظة المناسبة لتنهش الاساس العقائدي الذي قامت عليه الدولة فتقوضها من الداخل .

ولست أريد وأنا أضع خاتمة لهذا البحث أن أدخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من أدوار ، وأثر هذا كله في توجيه أحداث هذه الفترة وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء من السادة والتجار تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطى للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، أرجو أن يتاح لي تناوله في بحث قادم ، ولكني أود أن اذكر بأن طبيعة الظرف الذي أدى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، أدت كلها الى أن ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد أدى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بن ما رفعته الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بين مادح مستفيض في المدح ، وقادح مغرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لايكتفوا بالظاهر وألا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتزم المنهجية العلمية ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .